بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وكفى... والصلاة والسلام أفضلهما على سيد الخلق سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد أجمعين.. والسلام على الصحب الكرام والتابعين

" الــر * كتاب أحكمت ءاياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير * "

مقدمة

هذا الموضوع - تأصيل فنية القصة فى القرءان الكريم وتنوع أسلوبها" قصة سيدنا موسى نموذجا " - كنت قد بدأت فى الإعداد له على أن يكون رسالة ماجستير ولكن نظرا لتوجه القسم بالكلية لدراسة الأدب القديم ونقده , دون التعرض لما يدور حول الدراسات القرءانية..فقد بدأت فى الإعداد لموضوع آخر... فلم يستوف حقه عندى فى البحث فى جميع الجوانب التى أردت أن أتعرض لها بالدراسة...

كما أن تلخيص موضوع لدرجة التخصص من الصعب بمكان أن ألخصه فى خمسة عشر صفحة مشتملة على المراجع...وعليه فقد حاولت إبراز الفكرة التى تدور فى خلدى من تأصيل لهذا الفن القصصى فى القرءان الكريم لا من حيث تطبيق القواعد التى أرساها الغرب لفن القصة.. ولكن من حيث أن هذا الفن فن مستقل بذاته مستقل فى غايته أحادى المصدر.. وهو القرءان الكريم..

من حيث أنه نموذج يرسى قواعد بليغة وأنه نموذج فريد لا يبارى وليس فى موضع النقد.. بل فى موضع الإرشاد.وعليه لم أستطع أن أتناول كل جوانب الموضوع بالتفصيل فاكتفيت بلمحات تناسب الخمسة عشر صفحة ...

ولكن اعترافا منى بدوركم الجليل فى خدمة اللغة العربية ورغبة منى فى أن أكون جزء صغير من هذا العمل .. وتقديرا لتواصلكم معى حاولت جاهدة إخراج هذا البحث مشتملا على بعض النقاط الهامة فى هذا الموضوع ... راجية المولى – عز و جل – أن يكون خالصا لوجهه الكريم وأن يغفر لى زلاتى ويتقبله فى صالح أعمالى ...

وأن ينال هذا المجهود المتواضع تقديركم ... ويساهم فيما تقدمون من عمل طيب

.....

يعد التكرار فى بعض آيات القرءان الكريم بعامة والقصص القرءانى بخاصة ظاهرة أسلوبية ملفتة للانتباه تجذب المتلقى وتثير مشاعره للبحث عن أسبابها..

إن التكرار يعد ظاهرة أسلوبية واضحة وهو نوع من التنوعات اللغوية التى غالبا ماتحمل دلالات فنية تؤثر فى المتلقى وتجذب انتباهه...والتكرار- وكذالك الإطناب - إن لم يفد فائدة أو لم يكن ذو غرض كان من باب التطويل والحشو..

وبالعودة للبحث فى الجو العام للخطاب والعلاقة والمناسبة بين الآيات الكريمة محاولة لكشف الغرض البلاغى وراء هذا التكرار أوالإطناب فى بعض المواضع . نرى أن كل تكرارأو إطناب فى القرءان الكريم بوجه عام والقصص القرءانى بوجه خاص يقع من وراءه غرض بلاغى أو هدف معين فهو ليس من باب التطويل .

وللتكرار والإطناب دواع واستخدامات شأنه شأن باقى أنواع البلاغة ,وأهم تلك الدواع : تثبيت المعنى المراد أو توضيحه, والتوكيد, ودفع الإيهام, وإثارة الحمية من أجل التعظيم أو التهويل وغير ذالك.

كما أنه يعاود النفوس الغافلة المرة بعد المرة يزيل عنها غفلتها..كما يعاود النفس الآمنة المطمئنة بما يثبت فيها دعائم اليقين .. وبين وسائل الترغيب والترهيب تتعدد وتتكرر الأساليب فى القرءان الكريم ماضية فى تحقيق هدفها المقصود.كما قد رأينا فى علوم النفس والاجتماع حديثا كيف ان اصحاب الدعايات يعمدون الى التكرار فى اعلاناتهم ونشراتهم.. فإذا تكرر الشيء رسخ فى الاذهان حتى تنتهى بقبوله حقيقة واضحة...فهو من سبل الإقناع لتركيز الرأى والعقيدة فى النفس..وفيه ما فيه من التلوين فى التعبير من تنشيط السامعين وتحريك انتباههم.ويمكن ملاحظة هذه الظاهرة ومتابعتها من خلال السياق الذى وردت فيه .

ويأتى التكرار بأنماط أسلوبية متنوعة تبعا لتنوع المقام والمخاطب والملقى... فهى تبدأ من الحرف وتمتد إلى الكلمة والعبارة وإلى الآية بكاملها, وكل نمط من تلك الأشكال يعمل على إبراز جانب تأثيرى خاص .. وهذه الظاهرة قديمة مستحسنة موجودة فى الشعر العربى ..وهذا التكرار نوعان : إما تكرار لجزء من الجملة كالحرف أو الفعل أو حتى الجملة نفسها , وإما تكرار لموضوع القصة فى سورة أخرى .

من الأمور التي يقف عليها الدارس عند البحث في قصص القرآن الكريم ظاهرة تكرار الأحداث وسيرة الأنبياء.... تناول هذه الظاهرة كثير من القدماء، والمحدثين، ولعل دافع معظمهم هو الرد على ما ادعاه بعض المستشرقين، وأصحاب القلوب الضعيفة، الذي اتخذوا من تكرار بعض القصص ذريعة للطعن في القرآن الكريم .

لعل أقدم من تناول هذه الظاهرة ابن قتية , فذكر سببها فقال: " إن القرءان الكريم لم ينزل مرة واحدة, بل نزل منجما فى ثلاث وعشرين سنة , وكذالك فإنه – سبحانه وتعالى – لم يفرض على عباده أن يحفظوا القرءان الكريم كله , ولا أن يختموه فى التعليم... وكانت وفود العرب ترد على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – للإسلام,فيقرئهم المسلمون شيئا من القرءان الكريم فيكون ذالك كافيا , فأراد الله – تعالى – أن يشتهر القصص فى أطراف الأرض , وكذالك فالقصص ليست كالفروض..."

أما السيوطى فقد أشار إلى معانى القرءان الكريم بعامة وإلى التكرار فى القصة بخاصة فذكر فوائد التكرار , وهى: أن الكلام حيثما يكرر فإنه يقر فى النفوس وكذالك للتأكيد .. وأنه – سبحانه – إذا كرر قصة زاد فيها شيئا وتسلية لقلب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – لإبراز الكلام الواحد فى فنون كثيرة وأساليب مختلفة لا يخفى ما فيه من الفصاحة .. أن القصة الواحة من هذه القصص إذا تكررت فقد يوجد فى ألفاظها زيادة أو نقصان وتقديم أو تأخير ....وغيرها من الفوائد .

ونجد من العلماء القدامى مثل :الرمانى والزركشى والسيوطى وابن فارس ... وغيرهم متفقين أن هذا التكرار لفائدة..مشتركين فى كثير من الأسباب التى وضحوها...

كما تناول هذه الظاهرة بعض المحثين :, منهم: السيد قطب.. حيث يقول :"ويحسب أناس أن هناك تكرارا فى القصص القرآنى, لأن القصة قد يتكرر عرضها فى سور شتى, ولكن النظرة الفاحصة تؤكد أن ما من قصة أو حلقة من قصة قد تكررت فى صورة واحدة من ناحية القدر الذى يساق .

وكذالك تعرض لهذه النقطة من أمثال:الرافعى فى إعجاز القرءان ... فضل حسن عباس فى قصص القرءان وكذالك على حسين محمد سليمان فى القصة القرءانية الخصائص والأهداف... وغيرهم .. على أننا نلاحظ أن موقف المحدثين لم يختلف عن موقف القدماء بل جاءت أراؤهم مستنبطة من آراء القدماء أو مكررة لها.

ومن أبرز القصص القرءانى الذى ذكر أكثر من مرة فى القرءان الكريم قصة سيدنا موسى .. حيث يقول الشهيد سيد قطب – رحمه الله -:" أنها أكثر القصص القرءانى تكرارا فى القرءان الكريم , حيث وردت فى حوالى ثلاثين موضعا " . وفى هذا الصدد نرجع إلى علماء البلاغة وعلومها وعلماء التفسير ومؤلفاته كما أنه من الضرورى بمكان أن نقف على أسباب النزول وترتيب الآى والسور الكريمة تنزيلا.. حتى نستوضح الهدف العظيم والغاية النبيلة وراء أى تكرار .. سواء أكان لفظا أم حادثة..

.....

فى أغلب المؤلفات -إن لم تكن كلها - التى تعرضت لدراسة القصص القرءانى تناولته من منظور التطبيق... فهم يستعملون المصطلحات الغربية التى تتعلق بالسرد وغيرها... ويوصفون جزئيات القصة القرءانية بمواضعات الغرب .. حتى وإن كان فى ضمير بعضهم التأصيل...فأى تأصيل فى هذا إن اعتمدنا فى بحثنا على أقوالهم ومصطلحاتهم **!!!** ثم نقيس بعد ذالك هل استوفى القصص القرءانى ماتواضعوا عليه؟**!**

وعليه فبداية هذا التأصيل أن نقف عند كلمة " القصة " هذه الكلمة التى لها أصل عربى متمدد الجذور.. ومصطلح على معناه بين العرب من قديم.. حتى جاء القرءان الكريم فوضع نموذج رائعا رائدا فى هذا السياق ..فالعرب يعرفون هذه الكلمة .. وهى من القص .. أى : تتبع الأثر.. والبيان ...وهى الأمر والحديث كما نجد القرءان الكريم يخبرنا بقوله :" إن هذا لهو القصص الحق "و " نحن نقص عليك أحسن القصص" وبناءا على ذالك فإن : التعريف بالقصة القرءانية لابد أن ينبع من دراسة القصة فى القرءان الكريم واستنباط أصولها وقواعدها من خلال دراستها فيه والمرجع الوحيد فى ذالك هو القرءان الكريم.. بعيدا عن أى تأويلات... فمن نص القرءان الكريم فقط نأتى على دراستها واستنباط قواعد هذا القصص الحق.. مستندين إلى هذه العلوم التى وضعت لأجل دراسة القرءان الكريم والدوران فى فلكه..

إن القصة من حيث هى كلام مقروء أو مسموع... فهى حروف وألفاظ وجمل وعبارات .. وهذا فى حد ذاته وجه من وجوه الإعجاز القرءانى وجانب كبير من دراسة فنية القصة ... فكيف كانت الحروف والالفاظ معجزة فى حد ذاتها ؟.. تحدى المولى – عز و جل – العرب أن يأتوا بسورة من مثله ... فلو لم يكن الكلام الذى تألف منه القرءان على وجه العموم والقصة القرءانية على وجه الخصوص فى ألفاظها معجزة .. فما الذى منعهم عن الإتيان بقصص أخر؟؟!!!! وهذا باب أغفله الكثير ممن تعرض لهذا الموضوع بالدراسة ونحن إذا أردنا تأصيلا لهذا الفن المعجز فأولى بنا أن ننظر فى ألفاظ نظم هذا القصص...

ثم نأتى لنعرض لعلة التنوع الأسلوبى... لم جاءت هذه القصة فى هذه السورة... ما المناسبة... وما علة مجيئها على هذا الإيجاز أو الإطناب... وكيف خدم هذا الأسلوب السياق والمغزى ..

كما أن السياق الذى سيقت فيه القصة هو أيضا جانب معجز يستحق الوقوف عنده طويلا.. وهو بلغة أهل البلاغة.. مقام الحال...وهو من الجوانب التى تخدم سياق القصة كثيرا..كذالك الغرض من وراءه.. من أين بدأ القص وأين انتهى..

كما نأتى على ذكر عامل مهم.. وهو استخدام الأساليب البلاغية من تشبيه واستعارة ... تقديم وتأخير.. ووعيد وتبشير... وقسم.. وغيره... وتوظيفه فى سياق النص القصصى ليخدم الغاية منه.

وبعد ذالك نأتى على المحور الرئيسى فى موضوعنا... من الناحية الفنية أقصد..لنرى أن القرءان الكريم فى وسائل تعبيره وتصويره لم يدع آية واحدة أسيرة الألفاظ والحروف – وإن كانت معجزة فى ذاتها – بل جسمها واقعا ملموسا يحرك به المشاعر من الأعماق..ثم لم تلبث أن تنجلى بعدها حقائق الكون والحياة ماثلة أمام الأبصار...فالقرءان الكريم فى جوهره كتاب دعوة وهداية ..وفى سبيل خدمة هذا الهدف العظيم جاءت كل الأساليب .. فالقرءان الكريم لم يدع فى سبيل دعوته إلى الله وتقويمه للنفوس,وسيلة من وسائل الإقناع العقلى والتأثير الوجدانى إلا سلكها وهو يعرف جيدا السبيل لتحقيق هذا الإقناع وذالك التأثير.

وكان القصص القرءانى واحدا من تلك الوسائل التى برزت بجلاء فى كتاب الله لتؤدى غرضها فيما يهدف إليه القرءان الكريم من التوجيه والإرشاد,مستخدما فى ذالك أحداث الحياة ومظاهرها وخفاياها,بما يكفل له تحقيق ذالك المقصود...

ولم يكن القرءان الكريم- وهو كتاب الدعوة وتاريخها – ليغفل هذا الجانب الهام من جوانب الإقناع والتأثير وتقوية دعائم الإيمان فى النفوس.. فجاء بهذا القصص ليكون خير معين لصاحب الدعوة سيدنا محمد – صلى الله عليه وسلم – حتى يثبت ويصبر كما صبر و ثبت أولو العزم من الرسل .. وليكون داعما لصحبه الكرام – رضى الله عنهم – وليقفوا بأنفسهم مع نبيهم على سنة الله – تعالى – فى خلقه من تأييد للمؤمنين وخذلان للكافرين .. يقول المولى – تبارك وتعالى - :" وكلا نقص عليك من أنباء الرسل مانثبت به فؤادك وجاءك فى هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين " .. سورة هود.. آية 120

وبجانب كونه تدعيما له – صلوات الله عليه – ولصحبه ... فقد كان تأييدا له فى توضيح معالم الحق وتصديق لدعواه ..يقول المولى – تبارك وتعالى - :" لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ماكان حديثا يفترى ولكن تصيق الذى بين يديه وتفصيل كل شىء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون " سورة يوسف ..آية111

ومعلوم أن القرءان الكريم لم ينزله الله – تبارك وتعالى – ليكون كتاب قصص , وإنما جعله كتاب عقيدة وشريعة .... كتاب هداية وإرشاد, ومن ثم فقد جاءت القصة فيه لا لتكون عملا فنيا مستقلا فى موضوعه وطريقة عرضه وإدارة حوادثه كما هو الشأن فى غيرها ... وإنما جاءت لتكون نهجا وحدها, فى موضوعها وفى أسلوب أدائها وفى مقاصدها وغاياتها بما يحقق للقراءن الكريم مقصده الأسمى وهدفه الأصيل...

ولكن العجيب فى هذا القصص الرائع أن التعبير القرءانى قد ألف فيه بإبداع لا حد له بين الغرض الدينى والجمال الفنى معا .. وجعل من هذا الجمال الفنى أداة مقصودة للتأثير الوجدانى – مع التزام الحق فى كل ما جاء فيه – فخاطب حاسة الوجدان الدينية بلغة الجمال الفنية , ومعلوم أن إدراك هذا الجمال الفنى الرفيع ينبىء بحسن الاستعداد لتلقى التأثير الدينى .. وحين تصفو النفس لتلقى رسالة الجمال والتى تبلغ فى ميادين العقيدة والتشريع والتوجيه حد الكمال .

من أجل ذالك كانت السمة البارزة فى أسلوب القرءان الكريم هى اتباع وسائل التصوير المختلفة للمعانى الذهنية والحالات النفسية وعرضها فى صورة حسية متتابعة تتناول الأحداث الماضية والمشاهد الطبيعية والقصص المروية وأحداث اليوم الآخر بما فيه من صور النعيم أو الجحيم... هذه الصور وغيرها من وسائل التعبير والتصوير توجه بها القرءان الكريم إلى العقل الواعى ليتدير كما توجه بها إلى الوجدان المحس ليتأثر, ولتتأثر معه سائر الحواس فى الإنسان.. ومن ثم لم تكن الأساليب القرءانية مجرد كلمات تقرأ أو ألفاظ تسمع بل كانت صورا نابضة حية, تخاطب العين لترى والأذن لتسمع واللمس ليستشعر والوجدان ليتأثر والعقل ليتدبر .

فالتعبير القرءانى – بما تميز به من الدقة فى انتقاء ألفاظه والسمو فى معانيه – لم يتكىء على الألفاظ وحدها أو المعانى فحسب ... وإنما سلك طريقا فنيا فى الأداء ومنهجا أدبيا بالغ الروعة فى التعبير , اتجه به إلى إثارة الوجدان إثارة رفيعة تحدث السرور فى النفس فتقبل أو تحدث فيها الألم فتأبى, لأن هذا التعبير لم يتوجه إلى التفكير وحده لينفع بل وإلى الوجدان أيضا ليستميل .

.....

من اتجاهات القصة فى القرءان الكريم :

المتتبع للقصص القرءانى يجده حينا يسير مع الخط التاريخى فى عرضه للأحدداث و سرده للمواقف مراعيا فى ذالك الترتيب الزمنى بين الحدث وتاليه ... وأحيانا أخرى لم يحسب لهذا العمل الزمنى , بل جعل الأمر حسبما يقتضيه السياق وتحتمه اللأغراض التى سيقت من أجلها الآيات .

وكان من أمثلة هذا القصص المساير للترتيب الزمنى – فى إطاره العام – ماجاء فى سورة الأعراف حكاية عن بعض مواقف الأنبياء مع أقوامهم... حيث تبدأ بمواقف من قصة آدم – عليه السلام –ثم تستأنف الرحلة من لدن نوح وهود وصالح ولوط وشعيب ثم تأتى أخيرا مواقف من قصة سيدنا موسى–عليهم السلام جميعا-

وكأن هذا الترتيب الزمنى لقصص هؤلاء الأنبياء مع أقوامهم جاء ليعلن أن تلك الدعوة التى قاموا بأدائها جميعا إنما صدرت عن مشكاة واحدة .. كما اتجهوا بها جميعا إلى غاية واحدة....

فكل منهم يهتف فى قومه :" ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره " سورة الأعراف .. آية 59\65\73\84

ومن ثم جاء التسلسل التاريخى ليؤكد وحدة العقيدة فى الرسالات كلها ... فالنداء العام يهتف به الرسول فى قومه, ثم يمضى ويتبعه أخوه بعد فترة فيقول الكلمة ذاتها ثم يمضى ويأتى أخوه وهكذا... لأن العقيدة ذاتها لا تتبدل وصاحبها – سبحانه – واحد .. والرسل جميعا أمة واحدة ذات فطرة واحدة وطبيعة واحدة على مدار التاريخ .. فالإنسان هو الإنسان من بداية الخلق إلى أن تقوم الساعة .. فالذين آمنوا بكل رسول قد استجابوا لداعى الحق والخير فى نفوسهم , أما المعاندون فكانوا هم الذين هبطت بهم نفوسهم الدنيا فحالت بينهم وبين الحق الذى يدعون إليه ... وهكذا صور القرءان حال البشر مع رسلهم على مر العصور .

كذالك يضع القرءان الكريم هذا الترتيب الزمنى محل الإعتبار عندما يصور الغفلة عن هذه الإنذارات المتوالية ونسيان مواطن العظة والعبرة وإغفال شكر نعم الله – تعالى – وأهمها استخلاف الله – تعالى- لهم فى الأرض بعد مصارع الغابرين..... ومن هنا كان لذالك اللون القصصى أن يجرى على التسلسل التاريخى حتى إذا ما جاء التعقيب فى النهاية كان تعقيبا على كل هذه المواقف والأحداث المتماثلة والمتكررة عبر الزمان متناسبا مع ذالك العرض التاريخى مع مناسبته للسياق العام فى الآيات .

أما ذالك اللون الآخر من القصص القرءانى الذى لم يتبع هذا الخط التاريخى فى عرضه للمواقف والأحداث , فقد تعمده القرءان الكريم كثيرا حين لم يرد عرض الأحداث عرضا تاريخيا مسلسلا بقصد تسجيلها حسب وقوعها فى الزمان , وحين كان الهدف من ورائها التركيز على ما فيها من العبر والعظة واستخلاص المعانى الكامنة وراء الأحداث ورسم سمات النفوس وخلجات القلوب وتصوير الظروف التى صاحبتها وإبراز السنن الكونية التى تحكمها ومن ثم تسجيل الحادثة محورا أو نقطة ارتكاز تلتقى حولها مجموعة ضخمة من المشاعر والسماتوالنتائج والاستدلالات ... يبدأ السياق منها,ثم يستطرد حولها ثم يعود إليها أحيانا ثم يحول فى أعماق الضمائر وفى أغوار الحياة...

ويتخلل القصص القرءانى فى كل هذا أو يسبقه أو يتلوه مايتسق مع الإطار العام للآيات من لفت للأنظار والقلوب , ومن العودة إلى التوبة والإنابة قبل أن يحل العقاب أو يتحقق الإنذار , ومن الإشارة إلى عواقب المكذبين من الأمم الخالية التى حق عليها النذير.... وكل هذا فى تناسق تام بين السياق والقصة أو السياق والمشهد من القصة أو ما يبدو فيها من توجيهات ....

وهنا تبدو القصص والمشاهد والتوجيهات جميعا كأنها جزء من هذا السياق العام للآيات ملونة بلونه ومطبوعه بطابعه , محققة للغرض الذى يتجه إليه موضوع السورة الرئيسى من البدء إلى الختام , ومع أن هذا اللون لم يأخذ طابعه القصصى المعهود من حيث البدء والعرض والختام ومن حيث التسلسل مع أحداث التاريخ فى ترتيب وقوعها ... إلا أنه مع كل هذا قد كشف عن مواطن كثيرة من الإبداع والإعجاز.

.....

من مظاهر الإبداع فى قصص القرءان الكريم :

وكان من مظاهر الإبداع بل الإعجاز فى هذا القصص القرءانى ذالك التناسق الفنى الذى يبدو فى تنوع طريقة العرض وفى تنوع طريقة المفاجأة التى ترسمها الصورة القصصية , وفى تلك الفجوات التى تبدو بين الموقف والموقف لتدع للقارىء أو للسامع أن يملؤها بخياله كيفما شاء بما يربى فى نفسه حسن التذوق ورهافة الحس وصدق الشعور...

كما يبدو فى هذا الإبداع القرءانى فى سموه عندما تبرز الشخصيات القصصية فى تصوير صادق حتى كأن العيون تراها وكأن الإنسان يعيش معها وقائعها وأحداثها ...

ولا ننسى التنويه عن مدى معالجة القرءان الكريم فى صوره وجميع أنماط أسلوبه بعامة والقصص القرءانى بخاصة للمشاعر الإنسانية والنزعات الخيرو الشر... وعاقبة كل ...

كما أبدع فى تصوير العلاقات الإنسانية فى مجال الأسرة ومجال المجتمع...

وإلى شىء من التفصيل :

_ التنوع فى طريقة العرض :

فقد لوحظ فى قصص القرءان الكريم أربع طرائق مختلفة , وكلها معروضة حسب اقتضاء السياق....

فمرة تذكر صورة موجزة تلخص القصة قبل بدئها ... ثم تعرض التفصيلات بعد ذالك من بدايتها إلى نهايتها... وذالك كما فى قصة أصحاب الكهف...

ومرة يأتى تصوير القصة برسم عاقبتها ومغزاها ... ثم تبدأ القصة فى عرض أحداثها من جديد .. ويبدو هذا جليا فى قصة سيدنا موسى فى سورة القصص... فكأن ذالك التمهيد السابق على عرش أحداث القصة قد سبق ليكشف عن الغاية , ويبين موطن العبرة فيها , بالإضافة إلى ما أثاره هذا التمهيد من تشويق يجعل النفوس متشوقة إلى معرفة المواقف والأحداث التى أدت إلى هذه الغاية ...

ومرة ثالثة تذكر القصة مباشرة من غير مقدمات ومن غير إشارة إلى عاقبتها أو مغزاها , وهنا يكون دور المواقف والأحداث فى الإفصاح عن نفسها , كما يكون لعنصر المفاجأة دخل كبيرفى إثارة النفوس وترقبها لكل جديد قد يكون له تأثيره فى مجريات الأحداث.. ومثل هذا النوع كثير فى قصص القرءان الكريم.

أما اللون الرابع فيظهر جليا عندما نجد التصويرالقرءانى قد أحال القصة إلى شكل تمثيلى ... وفى هذا اللون نجد القصة تبدأ بذكر مقدمة يسيرة تشعر بابتداء العرض ثم لم يلبث الموقف أن ينتقل إلى أشخاص القصة أنفسهم ليبرز كل شخص بنفسه دوره فيها.... ويبدو مثال هذا فى الآيات التى تعرض لجانب من حياة إبراهيم وإسماعيل – عليهما السلام -..:" وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل .." فكانت هذه المقدمة بمثابة إشارة البدء فى هذا الموقف... ثم ما بعد ذالك فهو متروك لإبراهيم وإسماعيل:"ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم * ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم * ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم ءاياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك

أنت العزيز الحكيم "..... لقد انتهى الدعاء... وانتهى المشهد. ولكن بقيت حركة عجيبة فى الإنتقال من الخبر إلى الدعاء , وهى التى أحيت المشهد وردته حاضرا...

فالخبر " وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل " كان كأنما هو الإشارة المعلنة عن بداية المشهد , فإذا الأنظار أمام البيت وإبراهيم وإسماعيل يدعوان هذا الدعاء الطويل.

وكم فى الإنتقال من الحكاية إلى الدعاء مباشرة من إعجاز فنى بارع , يزيد وضوحا لو بقيت الحكاية مستمرة..فكم تكون الصورة ناقصة مثلا لو قيل : "وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل وهما يقولان: ربنا...."أنها فى هذه الصورة حكاية... وفى الصورة القرءانية حياة ... وهذا هو الفارق الكبير.

إن الحياة فى النص القرءانى لتثب متحركة حاضرة , كأنما نحن نشاهدها ببيان الآن ويدعوان الآن .. لا قبل اليوم بأجيال وزمان .... وسر الحركة كله فى لفظة واحدة كانت فاصلة بين الحكاية والحياة .. وذالك هو الإعجاز....

_ التنوع فى طريقة المفاجأة :

ومن مظاهر الإبداع فى القصص القرءانى مايبدو من تنوع فى طريقة المفاجأة , ولا يخفى ما فى هذا التنوع من إثارة للنفوس وجذب للإهتمام حتى يقف الإنسان من الأحداث فى النهاية على الحقيقة التى كانت تجذبه وتستثيره .

ولم تكن تلك المفاجآت تتخذ طابعا واحدا .. وإلا لما كان لها مثل تلك الإثارة لو أنها تكررت .. ففى كل مرة يجد الإنسان نفسه أمام لون جديد يشوقه ويثيره.. ويدعوه إلى الترقب والإنتظار حتى تتكشف له الأمور..

فمثلا ..ما يكتم فيه سر المفاجأة حتى عن أشخاص أنفسهم وعن المشاهدين جميعا – إن جاز لنا التعبير هكذا -... يبدو هذا فى قصة سيدنا موسى – عليه السلام – مع العبد الصالح .. حيث تجرى الأحداث كما حكاها المولى – تبارك وتعالى – فى سورة الكهف من الآية 60 إلى الآية 82

فمنذ أن بدأ ذالك الجانب من قصة سيدنا موسى – عليه السلام – حتى نهايته ونحن أمام مفاجآت متتالية , ولا نعلم لها سرا ....إلى أن انكشف السر فى النهاية , وكأن موقفنا منها هو موقف سيدنا موسى – عليه السلام – وهو أحد أشخاصها... ثم نحن جميعا مع كل هذه المواقف المتتابعة فى القصة لا نعرف من هو ذالك العبد الصالح الذى يأتى بتلك التصرفات العجيبة؟.. ولم يشأ القرءان الكريم أن يفصح عن اسمه و مهمته فى عصره... وكأن هذا تكملة لذالك الجو الغامض الذى يحيك بالأحداث.. فالمراد ليس أكثر من إبراز حكمة الغيب العليا التى لا تترتب النتائج القريبة على المقدمات المنظورة بل تهدف إلى أغراض بعيدة لا تراها العين المحدودة...

وكذالك نلحظ ألوان من المفاجأت كأن الحقيقة قد انكشفت لجمهور الناس مع أن أشخاص القصة أنفسهم فى عماية عنها.. فهؤلاء يتصرفون فى حياتهم وهم جاهلون بجلية الأمر , وأولئك يشاهدون تصرفاتهم عالمين.. وأغلب مايكون ذالك فى معرض السخرية من تلك الشخصيات التى أعماها الله – تعالى – عن الصواب بعد أن أضمرت فى أنفسها السوء...فمثلا : قصة أصحاب الجنة فى سورة القلم ... فهؤلاء بعد أن أضمروا

السوء وأقسموا على حرمان الفقراء حقهم.. متناسين أنعم الله – تعالى – عليهم..فكان جزاء الله – عز و جل – أسرع من مكرهم .. ولكنهم بعد لا يعلمون !!!

يقول – تعالى - :" إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين * ولا يستثنون * فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون *فأصبحت كالصريم .." " فتنادوا مصبحين * أن اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين * فانطلقوا وهم يتخافتون * أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين * وغدوا على حرد قادرين *"

وبينما هم على ذالك العزم من جمع المحصول دون أن يدرى بهم أحد .. إذا بالسياق يشى لنا بالحقيقة كاملة من قبل , ليهيء لنا جو السخرية من هؤلاء المانعين لحق الله , وهم يحسبون أنهم المتصرفون فى أرزاق الناس وأقدارهم.. فإذا بهم يفاجأون بالجنة خاوية " كالصريم ".. فلما رأوها قالوا إنا لضالون .... إلى آخر الآيات ...هذه بعض المفاجآت فى القصص القرءانى ولو تتبعناها لوجدنا منها أولوانا وصورا فائقة فى الروعة والإبداع , بالغة التأثير فى نفوس المتدبرين لآيات الله – تعالى - المحكمات .

_براعة الإنتقال وإيحاء الفجوات :

وكان من مظاهر الإبداع المعجز فى القصص القرءانى تلك البراعة الفائقة فى الإنتقال من حدث إلى حدث مع ترك الفجوة المناسبة بين الحدث وما يليه.... وهنا يجتمع نوعان من الجمال : براعة الإنتقال بين الأحداث والمشاهد .. وإيحاء الفجوات بين هذه المشاهد والأحداث مما يطلق للإنسان خياله وصدق شعوره ليتصور بنفسه ما جرى فى هذا الفراغ.....

وكان من الرائع حقا فى هذا الجانب من الجمال أنه مع ما قد يكون بين الحلقة والأخرى من تباعد بينهما فى الزمان أو المكان إلا أن الروعة القرءانية قد تجلت فى نظم هذه الحلقات بعضها ببعض... ولم تعد تشعر بذالك التباعد... وإذا بالسياق يمضى وشريط الأحداث دائر لا يتوقف... هى فنية التعبير وبراعة التصوير.

وعلى هذا مثلا – يضيق المقام عن شرحه – فى قصة سيدنا يوسف- عليه السلام – وهذا الانتقال بين زمان وزمان.. وبين مكان ومكان... ولا نشعر بغربة الأحداث والتنقل بين الأماكن والأزمنة .

_من تصوير الشخصيات فى القصص القرءانى :

برزت شخصيات القصة فى القرءان الكريم لتنم عن وظيفتها والحدث الذى تقوم بأدائه فى غاية من الواقعية والصدق بما روعى فيها عند تصويرها مع أحداثها أن تكون دقيقة الملامح,واضحة السمات لا يشوبها أدنى لبس أو إيهام,حيث كان المقام يستدعى ذالك الوضوح... أما إذا اقتضى الغرض أو السياق أو هما معا أن يحيط بهما شيء من الغموض,فقد يكون لبعض الشخصيات دورها ليحيط بها هى الأخرى جو من الكتمان وعدم الإفصاح عنها بما يحقق ذالك الغرض المقصود .. كما برز ذالك فى قصة العبد الصالح مع سيدنا موسى – عليه السلام -..... ومع أن القرءان الكريم لم يهدف إلى إبراز الشخصية فى حد ذاتها إلا بمقدار ارتباطها بالأحداث إلا أن الدقة القرآنية فى التصوير أبرزت هؤلاء الأشخاص وجعلتهم ملء السمع والبصر بما حددت لهم من معالم ورسمت لهم من ملامح... وبما ركزت على أبرز ما فيهم من الصفات

التى كان لها دخل كبير فى الحدث.. حتى تأكد لمن وقف على هذا القصص أنه ما كان لغير هؤلاء الأشخاص أن يصدر ما صدر من أحداث... وما كانت لتصدر عن غيرهم .. فكل ميسر لما خلق له !!

والشواهد كثيرة على هذا .. نتناول بشىء من التفصيل بعض السمات التى رسمها القصص القرءانى لسيدنا موسى – عليه السلام -....

فشخصية سيدنا موسى - عليه السلام – مع ما آتاه من الحكم والعلم منذ أن بلغ أشده واستوى كما قال – تعالى - :" ولما بلغ أشده واستوى ءاتيناه حكما وعلما وكذالك نجزى المحسنين " القصص 14

نجده مع ذالك وقد أبرزت الآيات فى مختلف المواقف والأحداث سمات شخصيته الجسمانية والعصبية.. فهو القوى الصلب ذو الساعد المشتد , وضربة منه – من غير قصد – كافية لأن تميت !!

أما عن سماته النفسية والعصبية فقد صورتها الآيات أدق تصوير وأصدقه حين عرضت لشخصيته فى اندفاعها وتحمسها للأمور.. ولكنها بقدر ما كانت شخصية سريعة فى اندفاعها فهى سريعة فى هدوءها واتزانها, وليس معنى ذالك أن يفهم الاندفاع على أنه خلل وتهور , فما كان لنبى مختار أن يكون كذالك وإنما هى - أحيانا – أهوال المفاجأة المثيرة التى تخرج الإنسان عن هدوء الطبع ... وإنما هى – أحيانا أخرى – تلك الغضبة للحق إذا ما كان هناك مجال للغضب...أو هى الحماسة البالغة من أجل إدراك الحقيقة والصواب فى بعض الأحيان...فإذا لم يعد فى الأمر مفاجأة مذهلة وإذا ما عاد الحق إلى نصابه .. عاد كل شىء فى الطبع كما كان ..هدوء واستقرار ويقين .

يقول- تعالى – :"ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه فاستغاثه الذى من شيعته على الذى من عدوه فوكزه موسى فقضى عليه .."القصص 15

ويبرز هنا التصوير : موسى – عليه السلام – بشخصيته القوية الفتية وعصبيته المنفعة المندفعة.. وليس بعد هذا التصوير من دلالة :" فوكزه موسى فقضى عليه ".... ولكن موسى – عليه السلام – لم يكن طاغية ولا جبارا.. ومن ثم فسرعان مايثوب إلى نفسه ويعود إلى ربه:" قال هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين * قال رب ظلمت نفسى فاغفر لى فغفر له إنه هو الغفور الرحيم * قال رب بما أنعمت على فلن أكون ظهيرا للمجرمين * فأصبح فى المدينة خائفا يترقب .." وهنا يبرزه التصوير قلقا حائرا.. وهو تعبير مصور لهيئة المتفزع المتلفت توقعا لشر يأتيه فى كل حركة وفى أية لحظة .. وزاد على هذا كله أن عاوده مايزيد مخاوفه ويثير انفعاله :" فإذا الذى استنصره بالأمس يستصرخه قال له موسى إنك لغوى مبين .." ويهم أن يفعل بالرجل كما فعل بسابقه وينسى فى غمرة انفعاله ماكان منه بعد قتيل الأمس.. لولا أن الرجل ذكره.. ويذاع أمر موسى وينتشر .. ويقبل عليه من يحذره" فخرج منها خائفا يترقب .." وهكذا يظل الخوف والترقب يتبعان موسى – عليه السلام – كظله إلى أن أصبح حديث الناس.. فلم يسعه إلا أن يرتكن إلى قوة ربه وحمايته " قال رب نجنى من القوم الظالمين ".. ويرحل موسى عن القوم.. وتعاودنا الآيات لتؤكد استمرار قوته الجسمانية وانفعالاته العصبية.. فكل منها ملازم له .. فبينما هو فى طريقه بعيدا عن القوم الذين يتربصون به.. تقف الآيات لتصور لنا مشهدا آخر يبرز موسى فى قوته " ولما ورد ماء مدين .." ويستحوذ المشهد على مشاعره فهذا حشد غفير من الناس على البئر.. وكل يستعمل سيطرته وقوته فى هذا

الزحام حتى يتقدم ويسقى غنمه.. وهاتان المرأتان بعيدتان عن هذا الحشد , ليس لهما من هم سوى أن تزودا عن أغنامهما وعن نفسيهما .. ويتقدم إلى المرأتين " قال ما خطبكما قالتا لا نسقى حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير* فسقى لهما .." هكذا فى عبارة موحية من القرءان الكريم لنفهم منها كل ما كان من موسى"فسقى لهما " بهذه الصورة الموحية التى كانت كافية لأن تعرفنا كيف اتخذ طريقه حتى تم السقى دون قتل.. وكانت تلك القوة هى التى رشحته للعمل مع الشيخ الكبير بل ليكون زوجا لإحدى بناته....

ويقضى – عليه السلام – الأجل , ويمضى بزوجه وفى الطريق يجد من الأحداث ما يثير انفعاله ويهزه من الأعماق.. فبينما هو يسير بأهله " آنس من جانب الطور نارا ....."

وهكذا ... يستمر القصص القرءانى بالتصوير والإيحاء عن سمات كل شخصية بما يتناسب مع السياق..فى كل قصصه وفى كل مواقفه الإنسانية التى تناولها.. يتناولها وصفا وتحليلا ..

كذالك يتناول فى كثير من الأحيان نزعات هؤلاء الشخوص النفسية .. وكيف أن النفس إن كانت خيرة أدت بصاحبها إلى أى عاقبة وإن لم تكن فإلى أين..

.....

وأخيرا نتعرض لبعض النقاط الهامة ...

أن القصة القرءانية ليست مجالا للدراسة بصفة فنية محضة تجعل كل ناقد يتناولها بالنقد.. وبإبراز رأيه التحليلى أو الاستنباطى... بل هى من الإعجاز والقداسة بمكان لا يسمح إلا بأن تكون موضع المثال والقدوة .. ندرسها ونحاول استلهام مواضع الإعجاز والإبداع فيها ... لا قياسا على مثال سابق أو تطبيقا لقواعد ..

فالقصة القرءانية إن أردنا أن ندرس – لنتعلم – جوانب الإبداع الفنى واللغوى والتصويرى فيها .. فهى مجال قائم بذاته .. علم خاص.. لا يقاس على مثال بل يقاس عليه.. له قواعده وأساليبه الخاصه به التى نستلهمها من خلال دراسة نص القرءان الكريم وحده ..بالإستعانة بالعلوم التى قعدت من أجله ودارت فى فلكه... فالجانب الفنى الذى يؤثر فى النفس البشرية فيه ويرقى بها فوق كل مستوى جدير بأن نتعلم منه لنسمو...داعين المولى – عز و جل – أن يحفظنا من الزلل .

نجد أن القصة القرءانية لا تعمد إلى الإثارة غير المجدية فى تصوير الأحداث مهما كانت ضخامتها وغرابتها إلا بقدر ما يخدم السياق ..بخاصة .. والغرض الذى سيقت لأجله .

كما سبق أن أشرنا إلى أن القصص فى القرءان الكريم لم يكن مقصودا منه إلا أن يخدم السياق الدينى وأن القصص كان وسيلة من ضمن وسائل عديده استخدمها القرءان الكريم للتأثير فى النفوس والرقى بها .. فالشخصية وما سواها من عوامل القصص الفنية لم تكن مقصودة فى أغلب الإحيان لذاتها ... بل كانت معروضة بصفتها نموذجا يتحرك فى الحياة بخيرها وشرها.. وهكذا هو الحدث أيضا.. ليس مرادا لذاته.. فالكل يعرض بالقدر الذى يطلع المتلقى على معدن الإنسان واتوالى سنن المولى – عز و جل - فى خلقه ... وبالعموم الغرض الدينديني للهداية والإرشاد وبيان دعوة الله – عز و جل – للبشر دوما إلى طريق الخير وتسخير كل شىء فى سبيل هذا الغرض وبعث الرسل كافة بنفس الرسالة .. رسالة السلام والتوحيد

ودوما نوعى البشر من يهتدى ومن يضل وعاقبة كل ... والجزاء فى نهاية الأمر فى اليوم الآخر حتى يبقى كل جزاء ما قدم.

.....

هناك قواعد قصصية كثيرة - إن لم يكن كلها - سبق القرءان الكريم من نادوا بتقعيد الأصول والقواعد لفن القصة الحديثة... نذكر من ذالك على سبيل المثال :

سبق إلى تأكيد قاعدة " الإقتصاد الفنى " وهى تعنى: أنه لا يجوز للقاص أن يصف إلا ما يدعم الحدث القصصى الذى اختاره محورا تدور حوله قصته.. وذالك بأن يتخلى عن كثير من التفاصيل التى لا تفيد القارىء فى شىء حتى يضمن أن يكون القارىء مشاركا إيجابيا فى القصة.

وكذالك تأكيد الإرتباط بين الأبعاد الثلاثة للشخصية وأن لكل منها أثرا فى البعدين الآخرين.

كما أن الإضمار القصصى ظاهرة تعد أصلا من أصول البناء الفنى للقصة القرءانية .. والمقصود هنا إسقاط كثير من الأحداث لغاية دينية أو فنية ..وهذا لم يهتدوا إليه إلا حديثا من فن الخيالة .

قد تجمع القصة القرءانية الواحدة بين أصول القصة القصيرة والطويلة معا.. وهو ما اصطلح عليه حديثا باسم " التصميم "

كذالك تأكيد أن الحوار يجب أن يكون مناسبا للشخصية وللموقف القصصى .. وأن تكون المقاومة فى القصة على قدر قوة الصراع بين أطرافها ..

أن التحول الحاد فى سلوك الأشخاص لابد أن يكون معللا ومقنعا فنيا , وقد سبقت القصة القرءانية إلى تأكيد ذالك .. وأن الإقناع بالحدث هو أقوى وسائل الإقناع.. فالتحول الكبير للشخوص لابد أن يصاحبه حدث كبير

.....

كل هذا وغيره يعود ويؤكد أن القصة القرءانية وإن لم تكن الفنية مقصودة بها فى المقام الأول.. إلا أننا إن عدنا فنظرنا فى الغاية من الأدب وكل مايتعلق به .. هو مخاطبة النفس والسمو بالوجدان .. الوحدات الثلاث : الحق والخير والجمال .. والتأثير بجميل القول للوصول إلى هذه الغايات ..

إن اتفقنا على هذا المبدأ .. فأى حق وخير وجمال أسمى وأرقى من مخاطبة الخالق لعباده لهدايتهم وإرشادهم إلى طريق الحق وإلى ما فيه صلاحهم...

إن كان الهدف هذا من كلام بشر يسمى أدبا ندرسه ونحتذى بالجيد منه .. فماذا نحن فاعلون بكلام الخالق!!

إن كانت هذه قاعدة حوارنا فأنا على يقين أننا إن تناولنا القصة القرءانية بخاصة وكل أنواع القول فى القرءان الكريم بعامة .. والبلاغة النبوية , على صاحبها أفضل الصلاة وأتم التسليم - بمعزل عن أن نجعلهما مجالا لتطبيق قواعد حداثية... فسنعود إلى سابق مجدنا.. الذى كان حين كنا ندور فى فلك القرءان

الكريم ولغته العظيمة ... وسنجد من الفنون الجديدة وقواعد لفنون قديمة نغير بها وجه الفن والأدب ... ووجه الإنسانية .

.....

أرجو المولى – عز و جل – أن أكون قد وفقت فى قولى .. وأن يكون خالصا لوجهه الكريم ..

وأن ينفعنا وإياكم بصالح الأعمال ويكون فى ميزان حسناتنا

المصادر والمراجع

_ القرءان الكريم

_ عبد المطلب , محمد : التكرار النمطى فى قصيدة المدح عند حافظ ,الهيئة المصرية العامة للكتاب ص47

_ الهاشمى , السيد أحمد : جواهر البلاغة فى المعانى والبيان والبديع ط 12 ص 261

_ الإطناب فى قصص القرءان الكريم ... رسالة ماجستير .. عائشة أحمد

_ محمود , السيد مشخون :أسرار التكرار فى لغة القرءان ...ط1 مكتبة الكليات الأزهرية ص65

_ تأويل مشكل القرءان .. شرح السيد أحم صقر.. دار التراث ط2

_ البرهان فى علوم القرءان ...ج3 .. ص 26 – 29

_ فى ظلال القرءان .. دار إحياء التراث العربى.. بيروت .. ط1 ج1 ص64

_ التصوير الفنى فى القرءان الكريم.. سيد قطب ص 21

_ النقد الأدبى.. دراسات نقية وأدبية حول إعجاز القرءان الكريم... د\صلاح الدين عبد التواب ط1

_ من بلاغة القرءان الكريم ... د\أحمد بدوى ... ص 37

_ راجع الفصل الخاص بالقصة فى التصوير الفنى للقرءان .. سي قطب ..ط8 دار المعارف ص119-175

_ راجع نسمات من عبير الأدب ..د\محمد سرحان ص6-8 .. دار الطباعة المحمدية

_ أسس بناء القصة فى القرءان الكريم ..دراسة أدبية ونقدية .. رسالة دكتوراة ..الباحث \محمد عبد الله عبده

_ الأثر القرءانى فى الصورة الأدبية.. صلاح الدين عبد التواب

_ قصص القرءان الكريم.. محمد جاد المولى

_ تفسير الكشاف للزمخشرى.. ط2 .. المطبعة الأميرية بالقاهرة

_ من الوجهه النفسية لدراسة الأدب ونقده..محمد خلف الله أحمد

_ إعجاز القرءان الكيم والبلاغة النبوية ... مصطفى صادق الرافعى

_ الإتقان فى علوم القرءان للسيوطى ..ط1.. المطبعة الأزهرية بالقاهرة